لغة المتنبي (١)

للأستاذ عبد القادر المبارك

قال فيها البليغ ما قال ذو العـــــي وكلٌّ بوصفها منطيقُ
وكذاك العدو لم يعدُ أن قا ل جميلاً كما يقول الصديقُ (٢)

أبو الطيب المتنبي الذي يمت بنسبه إلى قحطان من العرب العاربة ولد وترعرع في الكوفة مدينة الشعر والعروبة في الاسلام بعد أن مضى على تمصيرها في عهد ثاني الخلفاء الراشدين ثلاثة قرون ظلت فيها مقراً لأقطاب اللسان العربي ورجالات اللغة الفصحى من عرب وأعراب . فلا غرو أن يكون أبو الطيب المتنبي الذي ولد ونشأ فيها معرقاً في عروبته اللسانية إعراقه في عروبته القحطانية . على أن الكوفة التي صارت بعد الاسلام من أعظم الحواضر العربية كانت بقعتها قبل إنشاء المباني فيها بادية مأهولة بعرب الجاهلية وأعرابها من سكان الوبر الذين كانت وفودهم لا تبرح غادية رائحة بين منازل ملوك العرب من اللخميين والمناذرة إذ ليس بين الحيرة عاصمة ملوك العرب في الجاهلية وبين الكوفة سوى ثلاثة أميال .

وفي جوار الكوفة الخورنق الذي ذكرته العرب في أشعارها وضربت به الأمثال في أخبارها كما قال ياقوت ونقل أيضاً عن الهيثم بن عدي (٣) أنه لم يقدم الكوفة أحـــد من ولاتها إلا وأحدث في قصرها المعروف

---

(١) أقام المجمع العلمي العربي مهرجان المتنبي في تموز سنة ١٩٣٦ وكان من خطبائه الأستاذ عبد القادر المبارك

(٢) هذان البيتان لأبي البيداء اسعد بن عصمة الرياحي .

(٣) وهو كوفي ايضا .

بالخورنق شيئاً من الأبنية . وقال ياقوت أما ظاهر الكوفة فانها منازل النعمان بن المنذر والحيرة والنجف والخورنق والسدير والغريان وما هنالك من المتنزهات والديرة الكثيرة . اهـ . فحق لأبي الطيب أن يكون من أعرق الشعراء في عروبته ومعرفته بلغة أولئك الذين يقول الأسود بن يعفر فيهم :

أهلُ الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد

وما من بقعة في الكوفة وما جاورها إلا وهي معهد من معاهد العروبة التي يحن أبو الطيب اليها حنين الأسد إلى عرينه ولبوته ، ومن أحق من عباقرة الشعراء بحب وطنه ولغته ، فالله أعلم بما اهتاج في نفس أبي الطيب من طرب حين تغنى بقوله :

تذكرت ما بين العذيب وبارقٍ ... مجر عوالينا ومجرى السوابقِ

ولئن كان أبو الطيب قـــد حيل بينه وبين وطنه فقضى معظم سني حياته بعيداً عنه فانه ما حيل بينه وبين لغته العربية التي لم ينزع إلى لغة سواها ولم يهو شيئاً هواها تلقنها طفلاً وشعر بها مراهقاً وتضلع منها يافعاً واستحوذ عليها فتىً وبذ فحول شعرائها مكتهلاً . ولو أراد أبو الطيب أن يكون كاتباً لأنسانا الصولي والجاحظ ولو أراد تدوين اللغة العربية على مثال معاجم أئمتها لما سبقه الأزهري في تهذيبه والفارابي في ديوانه والصاحب في محيطه وابن فارس في مجمله وابن دريد في جمهرته وأبو علي الفارسي في تذكرته وغلام ثعلب في يواقيته وابن جني في مقتضبه وخصائصه على أن شاعريته التي أخمل بها فحول الشعراء أفادتنا عشرات الكتب التي ألفها علماء اللغة العربية من كبار أدبائها وسراة نوابغها بسبب ديوان شعره شرحاً وبحثاً ونقداً وسيظل شعره مدعاة لرجال الأدب العربي إلى خدمة هذه اللغة ما دام أهلها غيارى عليها .

ولقد كان لأبي الطيب من الشهرة بالنبوغ والعبقرية في حياته ما كان للجاحظ كما يظهر مما ذكره ياقوت في معجم الأدباء من أن الخطيب أبا الوليد بن عسال حج فلما انصرف تطلع إلى لقاء المتنبي واستشرف ورأى

أن لقيته فائدة يكتسبها وحلة فخر يحتسبها فصار اليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص ففاوضه قليلاً ثم قال ألا تنشدني لمليح الأندلس يعني ابن عبد ربه فأنشده :

يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقاً الخ

فلما أكمل إنشاده استعادها منه ثم صفق ثم قال يا ابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبواً .

وليس غرضي من هـذا الشاهد أن أبحث عن كنه ما أظهره المتنبي من استحسان لهذا الشعر وإنما غرضي أن الاندلسي شق عليه أن يعود إلى الأندلس دون أن يلقى عظيم أدباء الشرق .

ومن غرام أبي الطيب باللغة العربية حسن تخريجه لولده محسّد الذي أجاز هذا البيت .

زارنا في الظلام يطلب ستراً ... فافتضحنا بنوره في الظلام

بقوله :

فالتجأنا إلى حنادس شعرٍ ... سترتنا عن أعين اللوام

وليس بعجيب على من نشأ تلك النشأة بين عرب الكوفة حضراً وعرب كلب باديةً مع ما فطر عليه من لوذعية وشاعرية أن يصبح استاذاً في اللغة للجاحظ الثاني أبي الفضل ابن العميد الذي قرأ عليه كتاباً في اللغة من تصنيفه وكان يدهش لما يرى من مسابقته لايراد الشواهد وإفاضته في بيان أسرار القضايا اللغوية .

واستظهاره كتاباً عرض عليه في سوق الوراقين بتصفح يسير ، وجوابه للفارسي عما جاء على فِعلى ، ولابن خالويه عن أشجى في قوله :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه

ولسيف الدولة لما انتقد عليه قوله :

وقفت وما في الموت شك لواقفٍ ... كأنك في جفن الردى وهو نائمٌ

تمر بك الأبطال كلمى هزيمةً ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

كل ذلك من دلائل تبريزه في قوة الحافظة وامتلاك زمام اللغة التي ملكه كما ملكها وعنايته بالغوص على المعاني لا يبلغ في التعريف بفضله معشار ما يبلغه فيه شعره الشاعر . فكأن اللغة العربية في شعره غيرها في شعر غيره . والبيان كالجمال في كونه يملك القلوب ولا يحيط بكنه أسراره إلا علام الغيوب . فلا جرم إنه لجدير أن يسمى طوراً شعراً وتارة سحراً ، وتبارك الله أحسن الخالقين الذي خلق الانسان علمه البيان .

وأبو الطيب إنما كان نسيج وحده ببهاء بيانه وعبقري خياله إذ هو فيما كالشاعر الذي يقول :

إني وإن كنت صغير السن ... وكان في العين نبوٌّ عني
فان شيطاني أمير الجن ... يذهب بي في الشعر كلَّ فن

وإنك لترحم الشاعر أو الخطيب إذا أطال خوفاً عليه من أن ينبهر أو يصير الى الاسفاف ، أما أبو الطيب فكلما أطال ازداد تحليقاً حتى يجعل مكان الرحمة من سامعه حسداً ، كما يحكى عن زياد بن أبيه . وهو في شاعريته الغنية بثروته اللغوية أجدر من أبي العتاهية الذي نشأ في الكوفة بأن يقال فيه : لو أراد أن يجعل كلامه كله شعراً لفعل .

فلسانه كلسان عبد الملك المنكدري الذي قال فيه ابن المعدل : كلما تذكرت أن التراب أكل لسان عبد الملك حقرت الدنيا في عيني ، وكلاهما أقام ردحاً طويلاً في البادية بين بني كلب ؛ وكان عبد الملك اذا حاور الامام الشافعي ظلَّ من يسمعهما مبهوراً من فصاحتهما لأن الامام تأدب في البادية بهذيل كما أن ذاك تأدب بخؤولته من بني كلب .

وكان أبو الطيب طباً بوضع الكلم في مواضعه أكثر مما كان عنترة الفلحاء طباً بأخذ الفارس المستلئم ، فهو كما قال امرؤ القيس :

يذود القوافي عنه ذيادا ... ذياد غلامٍ غويٍّ جرادا

ومن مزاياه العربية غيرته على شعره أن ينتجع به من لا يفقه أسرار

اللغة ، وكانت هذه المزية من أشد البواعث على رغبته في إيثار سيف الدولة الذي كان يودّ أن لا يفارقه حتى يفارق دنياه .

ولولا ذلك لانتجع من نبغ في زمن خلافتهم من ملوك بني العباس وهم المقتدر ، القاهر ، الراضي ، المتقي ، المستكفي ، المطيع ؛ لكنه رأى السلطة في بلاطهم ، بلهَ مملكتهم لطاطم الموالي وأقزام المماليك ، فكانت بغداد عنده كشعب بوّان في طمطمانية المتحكمين فيها :

ملاعب جنةٍ لو سار فيها ... سليمانٌ لسار بترجمان

وكل ما قاله في مدح غير سيف الدولة ليس إلا إغراء له بطلبه ومعاتبة له ، وهل يستطيع من وُلد وترعرع في مدينة المنبر العلوي منجبة الألوف من فحول البلغاء ، وهو بارٌّ بلغته إلا أن يكون كأبي الطيب اعتزازاً بعربيته واعزازاً لها ، وإشفاقاً عليها من آفات اللحن ، إشفاق ذلك الأعرابي الذي سمع أحد الخلفاء من العباسيين يلحن فصرَّ أذنيه وقال : أشهد أنك ما وليت الخلافة إلا بقضاء وقدر .

وإليك مثالاً من فقه اللغة في الكوفة من محاورة بين كوفيٍّ واثنين من الأعراب في القرن السادس للهجرة ، بينما كان الكوفي عمر بن ابراهيم العلوي يغرس فسيلاً في حائط له إذ مرَّ به أعرابيان فقال أحدهما للآخر أيطمع هذا الشيخ الفحل أن يأكل من جني هذا الفسيل ، فسمعه الشيخ وقال : يا بني كم من كبش في المرعى وكم من خروف في التنور ، فسمع أحدهما دون الآخر الذي سأل رفيقه عما يقول العلوي ، فقال له إنه يقول : كم من ناب تسقى في جلد حوار ، فعلم الأعرابي ما قال وأعجبه ذلك .

هذا بعد عصر المعري الذي استنبط فيه العرب ، فما بالك بالعصور الأول في عكاظ الاسلام مربد البصرة وظاهر خدّ العذراء التي كانت من أكبر مدن العرب العرباء وفي مدرسة أبناء أشرافها أو كتابهم تلقى المتنبي دروسه الأولى باللسان العربي المبين الذي جرى على لسانه الطليق الذليق شعراً

مبشراً بعبقريته وهو ابن عشر سنين وبعد فاني أقول في لغة أبي الطيب ما قاله يونس بن حبيب في ابن العلاء البصري : لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله في كل شيء لكان ينبغي أن يؤخذ بقول أبي عمرو ابن العلاء كله في العربية ، ولكن ما من أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك إلا أفصح من نطق بالضاد نبينا محمداً عليه الصلاة والسلام .

وحبّ المتنبي اللغة العربية حدا به الى الامعان في تعرف أسرارها والحرص على تصفح خيرة معاجمها الكثيرة التي أولها العين الفراهيدي ، وآخرها المحيط للصاحب ، والصحاح للجوهري ، وكتاب العالم واللغة المفتتح بالفلك والمختتم بالذرة لأحمد بن أبان الأندلسي المتوفى سنة (٣٨٢) وهو مائة مجلد ، ولقد بلغت كتب اللغـــة في القرن الرابع للهجرة من الوفارة والكثرة ما يكفي في الدلالة عليه قول الصاحب ابن عباد كما في المزهر : أحتاج الى ستين جملاً أنقل عليها كتب اللغة التي عندي . فهل يصح بعد هذا أن يقال : كل ما في كلام المتنبي من الغريب المصنف سوى حرف واحد هو في كتاب الجمهرة وهو قوله : تطوى المجلحة العقـد كما يدعي صاحب كتاب إيضاح مشكل شعر المتنبي ، على ما نقل صاحب الخزانة الكبرى ، وأنى يمكن الوقوف على سند صحيح يثبت أن أبا الطيب لم يطلع على كلمة المجلحة أو العقد إلا في كتاب الجمهرة لابن دريد المتوفى سنة (٣٢١) ، وأبو الطيب طالما أحيا الليالي درساً حين لم يكن له سوى الكتاب سميراً رجاء أن يقف من طريق الصناعة على محاسن لغة أتقنها من طريق الطبيعة في مدرستها العالمية حضارةً وبداوة .

ومثله يترفع أن يقول : إني أطالع كتاب فلان وأدرس ديوان كذا ، وكلمة مجلحة جاءت في شعر بشر بن أبي حازم وفي شعر لبيد وفي شعر امرىء القيس وفي شعر بنت وثيمة في رثائها لأبيها كما في بيان الجاحظ في الباب الذي أوله (وكانوا يمدحون شدة العارضة) . وكلمة العقـد التي هي جمع الأعقد لهـــا شواهد أوفر وأكثر من شواهد المجلحة ،

والأليق بالصواب والأقرب الى المعقول في مثل المجلحة أن يقال استفادها من لغة الأعراب الذين كان يرحل برحيلهم وينزل بنزولهم من أهل البوادي . والتجليح لفظاً ومعنىً بابن الوبر أليق وأعلق منه بابن المدر وقلما تراه في كلام أهل الحضر ، ومعناه الذي هو أن يركب المرء رأسه ويحمل حملة الحيوان الضاري قلما يستغني عنه سكان الصحاري .

وكأن صاحب كتاب إيضاح المشكل أراد الغض من أبي الطيب الذي قدّر عليه ان يكون محسداً كما قدر عليه أن يكون أبا محسد بكونه قليل الاطلاع على كتب اللغة وأنه لم يطلع إلا على غريب أبي عبيد وعلى أقل من القليل من جمهرة ابن دريد والمتنبي يقول له بلسان الحال : حرف في قلبك خير من ألف في كتبك ، ورحم الله أبا ذؤيب إذ يقول :

وعيرها الواشون أني أحبها وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارها

والمجلحة في كلام المتنبي جاءت في القصيدة التي مطلعها :

« أقل فعالي بلّهَ أكثره مجدُ »

في هذا البيت :

وأمضي كما يمضي السنانُ لطيتي وأطوي كما تطوي المجلحة العُقْدُ

وجاءت في التي مطلعها :

« أيدري ما أرابك من يريبُ »

إذ يقول :

مجلحة لها أرض الاعادي وللسمر المناحرُ والجُنوبُ

وكان الأولى بالأصبهاني اذا ادعى معرفة مصادر غريب اللغة في شعر المتنبي أن يقول : إنما أخذ المجلحة من بائية امرىء القيس التي أولها :

أرانا موضعين لأمر غيب ونسحر بالطعام وبالشراب

عصافير وذبان ودودٌ وأجرأ من مجلحة الذئاب

لأن أبا الطيب خل شعراء العراق من سلائل عرب اليمن حقيق أن

يحفظ شعر امرىء القيس لحل شعراء نجد من أبناء ملوك كندة من اليمن لا سيما الشعر الذي قيل بسبب معركة حمي الوطيس فيها قرب الكوفة وكان يومها عصيباً من أشد أيام العرب هولاً ، وهو يوم الكلاب الذي عم امرىء القيس شرحبيل من قتلاه . ومثل أبي محمد من يعني بدراسة أخبار العرب لا سيما أيامها ، على ان ذلك كله تحكم ليس له مبرر ومن يستطيع ان يحكم عليه انه لم يسمعها ويحفظها في منزل أسرته في كندة بين احياء الكوفة في مدرسة الحياة الأولى التي يكون التعلم فيها بالفطرة ولكن يا ابا الطيب :

بحسبك اني لا ارى لك عائباً سوى حاسد والحاسدون كثيرُ

كما قيل في شأن معاصرك المفضال علي بن عيسى بن داود بن الجراح وليس هذا التحكم عليك في دعوى انك لم تعرف كلمة المجلحة إلا من الجمهرة بأغرب من تحكم من ادعى انك سرقت قولك :

ومن جهلت نفسهُ قدرَه رأى غيره منه ما لا يرى

من قصة قصار كان يعمل على شاطىء نهر ، وكان كل يوم يرى كركياً يجيء فيلتقط من الحمأة دوداً يقتصر في القوت عليه ، حتى رأى ذات يوم صقراً حلق ثم انقض على حمامة فاصطادها واكلها . فقال الكركي مالي لا اصطاد الطيور كما يصطاد هذا الصقر وانا اكبر منه جسماً ، فارتفع في الجوّ وانقض على حمامة فأخطأها وسقط في الحمأة فتلطخ رأسه وريشه ولم يمكنه ان يطير ، فأخذه الصياد ورجع الى منزله ، فقيل له ما هذا : فقال « كركي يتصقّر » ، فسمع المتنبي هذه الحكاية ، فأخذ منها معنى هذا البيت :

ومن جهلت نفسُه قدرَه رأى غيره منه ما لا يرى

قال ابن نباتة شارح رسالة ابن زيدون بعد هذه الحكاية : وهذا من نادر التعصب على هذا الرجل الفاضل المحسود .

أبو الطيب له ولع ودربة باستعمال الفصيح في شعره ونثره وسائر

كلامه ، فاذا حاول العدول عن منهاج اللسان المضري القويم لم يستطع اليه سبيلا فما أصدقه في قوله :

وكلة في طريق خفت أعربُها فيهتدي لي فلم أقدر على اللحنِ

من قصيدته التي مطلعها :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطنِ

فالمتنبي يستسهل بذل نفسه في سبيل صيانة لغته التي يفديها بروحه ، وكأنه يقول : لا بارك الله في الحياة بعد ضياع اللغة . من أجل ذلك رأى ارتكاب ما فيه خطر على حياته أهون من ارتكاب ما فيه خطر على لغته . وفي البيت مسألتان : (خفت أعربها) من الفعل المضارع ، وتحريك حاء (اللحن) اتباعا للام وشاهد الاول قوله تعالى « أفغير الله تأمروني أعبد » أي أن أعبد ، وقول طرفة ابن العبد :

ألا أيها ذا الزاجري احضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

أي أن أحضر الوغى ، ومن هذا القبيل قولهم : مره يحفر بئراً أي أن يحفر ، وقولهم : خذه قبل يأخذك أي قبل أن يأخذك ، وسمع بالمعيدي خير من أن تراه أي أن تسمع . والمتنبي كسائر فصحاء الكوفيين كثيراً ما يستعمل ذلك في قوله :

وتوقدت أنفاسنا حتى لقد أشفقت تحترقُ العواذل بيننا

وقوله :

وما تسع الأزمان علمي بأمرها ولا تحسن الأيام تكتبُ ما أملي

وقوله :

أشفق عند اتقاد فكرته عليه منها أخافُ يشتعلُ

وقوله في ثياب أهديت اليه :

أقر جلدي بها عليّ فلا أقدر حتى الممات أجحدُها

ويسوغ ان يعود الفعل المضارع مرفوعا مع إضمار أن قبله لأن الحرف

عامل ضعيف ، فاذا أضمر زال أثره ولم يقو على الظهور ، كما يسوغ أن يبقى منصوباً باعتبار ان المقدر كالثابت وعليه قول المتنبي :

نوقهُ ومتى ما شئت تبلوهُ   فكن معاديه أو كن له نشبا

في التي مطلعها :

دمعٌ جرى فقضى في الربع ما وجبا

وقرئ كما في الكشاف للزمخشري (أعبدُ) مرفوعا وقرئ منصوباً في سورة الزمر من قوله تعالى « أفغير الله تأمروني أعبد » .

وأما تحريك حاء اللحن بالفتح اتباعاً لامها فهو من قبيل تحريك الهاء في نهر وزهر ودهر . قال أبو النجم :

يا جبلا طال معداً فاشمخرّ   اشمّ لا يسطيعه الناس الدّهَرْ

قال ابن منظور في لسان العرب : إما أن يكون الدهر والدهر لغتين كما ذهب اليه البصريون في هذا النحو فيقتصر على ما سمع منه ، وإما أن يكون ذلك مكان حروف الحلق فيطرد كما ذهب اليه الكوفيون اه ، والمراد من اللحن في بيت أبي الطيب الخطأ في الكلام والعدول عن سنن الصواب فيه ، ولم يرد شيئاً من معانيه الاخرى كاللغة والفهم والفطانة والالغاز والتعريض والغناء والتطريب ، وان كان لفظ اللحن مشتركا في ذلك كله . إن أبا الطيب في تمسكه بعربيته والتزامه فصحاها لهجةً وألفاظا مطبوع يجري في ذلك على مقتضى طبعه ، فهو من أشبه الناس بالاعرابي الذي كان الترافع اليه ليكون حكما بين سيبويه والكسائي فلم يستطع أن يلحن فيقول : فاذا هو اياها ولكن استطاع أن يكذب فيقول : الحق مع الكسائي ولو اكره على التلفظ بالنص المتناقش فيه لظهر أن الحق مع سيبويه ، لان لسانه لا يجري حينئذ الا بقوله : فاذا هو هي ، على ما ذهب اليه سيبويه ، فكان احتمال عار الكذب عنده أهون من احتمال عار افساد لغته الفصحى الجميلة التي بها جاء أحسن الحديث وحياً ، كلما زدته تلاوة زادك حسنا وطلاوة . وليس أبو الطيب بدعا في عشقه لغة مضرية تجلت له من عرائسها :

وجوه لا تزال تزيد حسنا   لمثل جمالها خلق الغرامُ

ومن أشباهه في الشنشنة ذلك الامير جبلة بن عبد الرحمن الذي كان يكتب باللسان المبين اسماء الاطعمة التي يريدها في رقاع يبعث بها الى طاهيه ، وكان هذا لا يقدر على الاستقلال بفهمها لضعف عربيته فيراجع ابن أبي إسحاق الحضرمي أو يحيى بن يعمر العدواني للاستيضاح عما كتبه له سيده جبلة في تلك الرقاع ، فاذا عرف ما فيها من أنواع الاطعمة أتاه به ، وكان من أجل ذلك يبطيء عليه في إحضارها فقال له :

ويحك أيها الطاهي ما بالك تبطيء كأنك تريد بإبطائك أن تحملني على الصيام ، فقال له الطاهي : سهِّلْ كلامك أسهلْ طعامك ، فقال له سيده : يا ابن اللخناء أفأدع عربيتي من أجل عيّك .

ولصحة الطبع في اللغة كان لفصحاء العهد الجاهلي وصدر الاسلام أعلى مقام بين طبقات أمراء الكلام ، وهيهات أن تظهر عبقرية البيان الا بسلامة الذوق وطلاقة اللسان ، ولقد أصاب الحز وطبق المفصل من قال :

نعم عون الفتى اذا طلب العلـ   ـم ورام الآداب صحةُ طبع
فاذا الطبع خانه بطل السعـ   ـي وصار العناء في غير نفع

وقال المتنبي :

أبلغ ما يطلب النجاح به الطبـ   ـعُ وعند التعمق الزللُ

لا جرم أن لهؤلاء المطبوعين في كلامهم أن يعجبوا ممن يلحن ويتهاون بالاعراب ويحيد في كلامه عن سنن الصواب كالأعرابي الذي كان يقول : عجبت للتجار الذين يلحنون فيستطيعون مع لحنهم أن يربحوا في متاجرهم ، وكالذي سمع بعض الخلفاء في العهد العباسي يلحن في كلامه فقال : لولا القضاء والقدر لما قدر أن يكون هذا خليفة ، ولكن قدر فكان ، وليس بضائر فارس الطخرور أبا محمد وشعره شعره قول ابن خالويه فيه : إنه لم يكن يعرف أن البعير يستعمل بمعنى الحمار ، كأنه انفرد بمعناه ولم يحوه سواه .

دمشق : تموز سنة ١٩٣٦ .